الكواكب في التراب تغور

يرثي محمد بن إسحاق التنوخي:

[الكامل]

إِنِّـي لأَعْـلَـمُ وَٱلـلَّـبِـيـبُ خَـبِـيـرُ
أَنَّ الْـحَـيَـاةَ وَإِنْ حَـرَصْـتَ غُـرُورُ(١)
وَرَأَيْـتُ كُـلّاً مَـا يُـعَـلِّـلُ نَـفْـسَـهُ
بِـتَـعِـلَّـةٍ وَإِلَـى الْـفَـنَـاءِ يَـصِـيـرُ(٢)
أَمُـجَـاوِرَ الـدِّيـمَـاسِ رَهْـنَ قَـرَارَةٍ
فِـيـهَـا الـضِّـيَـاءُ بِـوَجْـهِـهِ وَالـنـورُ(٣)
مَـا كُـنْـتُ أَحْـسَـبُ قَـبْـلَ دَفْـنِـكَ فِـي الـثَّـرَى
أَنَّ الْـكَـوَاكِـبَ فِـي الـتُّـرَابِ تَـغُـورُ(٤)
مَـا كُـنْـتُ آمِـلُ قَـبْـلَ نَـعْـشِـكَ أَنْ أَرَى
رَضْـوَى عَـلَـى أَيْـدِي الـرِّجَـالِ تَـسِـيـرُ(٥)

---

(١) و (٢) اللبيب: الأريب، الرزين. يبدأ الشاعر مرثيته منوّهاً بمعرفته أن الحياة زائلة فلن تدوم لمخلوق مهما علا شأنه، فمآله إلى موت محقّق، والحرص على الحياة من الغرور، وإنها خادعة بمتعها تزرع الأمل في النفوس ولكنها تسارع إلى اختطاف الأعمار في غمرة زحمة تحقيق ما يصبو إليه البشر.

(٣) الدِّيماس: القبر المظلم. القرارة: القبر. يخاطب الشاعر الفقيد إنه مجاور قبر ومقيم فيه إلى يوم البعث، والقبر قد تحوّل إلى ضياء احتفاءً بالفقيد بعدما كان ظلاماً دامساً، فانقشعت الظلمة بنور وجهه.

(٤) و (٥) وردت الأبيات الستة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٣. الثرى: التراب. تغور: تختفي من مسلمات الشاعر أن الكواكب لا تدفن في طيات التراب حتى شاهد بأم عينه الفقيد يُدفن لعلمه أنه كوكب شعّ على بلده عطاءً وعظمة وشجاعة وحسن رأي. ولذا فقد شبهه بحبل رضوى من جبال المدينة المنوّرة لعظمته، فإذا به يُحمل في نعشه إلى مثواه الأخير على الأعناق السائرة وقد ألجمتها الفاجعة.

خَـرَجُـوا بِـهِ وَلِـكُـلِّ بَـاكٍ خَـلْـفَـهُ
صَـعَـقَـاتُ مُـوسَـى يَـوْمَ دُكَّ الـطُّـورُ(١)
وَالـشَّـمْـسُ فِـي كَـبِـدِ الـسَّـمَـاءِ مَـرِيـضَـةٌ
والأَرْضُ واجِـفَـةٌ تَـكَـادُ تَـمُـورُ(٢)
وحَـفِـيـفُ أَجْـنِـحَـةِ الـمَـلَائِـكِ حَـوْلَـهُ
وعُـيُـونُ أَهْـلِ الـلَّاذِقِـيَّـةِ صُـورُ(٣)
حَـتَّـى أَتَـوْا جَـدَثـاً كَـأَنَّ ضَـرِيـحَـهُ
فِـي قَـلْـبِ كُـلِّ مُـوَحِّـدٍ مَـحْـفُـورُ(٤)
بِـمُـزَوَّدٍ كَـفَـنَ الْـبِـلَـى مِـنْ مُـلْـكِـهِ
مُـغْـفٍ وإِثْـمِـدُ عَـيْـنِـهِ الْـكَـافُـورُ(٥)
فِـيـهِ الْـفَـصَـاحَـةُ وَالـسَّـمَـاحَـةُ وَالـتُّـقَـى
وَالْـبَـأْسُ أَجْـمَـعُ وَالْـحِـجَـى وَالْـخِـيـرُ(٦)

(١) الصعقات، الواحدة صعقة: الغشية. دكّ: حطّم. الطور: الجبل. حُمل الفقيد والقلوب يعتصرها الألم يُترجم بالدمع الغزير، وقد غشي النفوس حالة من ذهول كأنها صعقت كما صُعق سيدُنا موسى عليه السلام يوم تجلّى له ربّه في طور سيناء فوقع مغشياً عليه إجلالاً للّه تعالى.

(٢) كبد السماء: وسطها. واجفة: مضطربة. تمور: تتحرّك في كلّ اتّجاه. يصف الشاعر ما حلّ بالكون جرّاء موت المرثي، فالشمس ضوؤها خافت، والأرض كأنها في زلزال عنيف على وشك أن يحدث فيدمّر كلّ شيء بعنف.

(٣) و (٤) حفيف الأجنحة: صوت تحركها. صور: شاخصة. إنه موكب حزين وقد باركته السماء، فاصطحبته الملائكة وهي ترفرف بأجنحتها وتظلّه ببركتها، وجمهور أهل المدينة يتابع المسير، وقد سمّرت عيونهم في النعش وكأنهم لا يُصدّقون ما تراه أعينهم. إنها ساعة الفراق، والقبر ماثل أمام العيون وقد فتح فاه لاستقبال ضيف جديد، فإذا بالقلوب تجأر بالدعاء والتكبير.

(٥) البلى: الموت. المغفي: النائم. الإثمد: الكحل. الكافور: ضرب من الطيب يُضمّخ به الموتى المسلمون. ويُتابع الشاعر إتمام الصورة المحزنة لقد كُفّن بكفن سيبلى وضمّ بالكافور بدل الإثمد؛ إنه حظّه من الدنيا وقد ترك كلّ شيء للأحياء.

(٦) السماحة: الكرم. البأس: القوة. الحجى: العقل. الخِير، بكسر الخاء: النبل =

كَـفَـلَ الـثَّـنَـاءُ لَـهُ بِـرَدِّ حَـيَـاتِـهِ
لـمَّـا ٱنْـطَـوَى فَـكَـأَنَّـهُ مَـنْـشُـورُ(١)
وَكَـأَنَّـمَـا عِـيـسَـى ٱبْـنُ مَـرْيَـمَ ذِكْـرُهُ
وكـأنَّ عـازَرَ شَـخْـصُـهُ الْـمَـقْـبُـورُ(٢)

إن العظيم على العظيم صبور

واستزاده بنو عم الميت فقال ارتجالاً : [الكامل]

غـاضَـتْ أَنَـامِـلُـهُ وَهُـنَّ بُـحُـورُ
وَخَـبَـتْ مَـكَـايِـدُهُ وَهُـنَّ سَـعِـيـرُ(٣)
يُـبْـكَـى عَـلَـيْـهِ وَمَـا اسْـتَـقَـرَّ قَـرَارُهُ
فِـي الـلَّـحْـدِ حَـتَّـى صَـافَـحَـتْـهُ الْـحُـورُ(٤)
صَـبْـراً بَـنِـي إِسْـحَـاقَ عَـنْـهُ تَـكَـرُّمـاً
إِنَّ الْـعَـظِـيـمَ عَـلَـى الْـعَـظِـيـمِ صَـبُـورُ(٥)
فَـلِـكُـلِّ مَـفْـجُـوعٍ سِـوَاكُـمْ مُـشْـبِـهٌ
وَلِـكُـلِّ مَـفْـقُـودٍ سِـوَاهُ نَـظِـيـرُ(٦)

= والسؤدد. لقد حوى الكفن الصفوة من البشر، وقوام ذلك كرم وفصاحة وتقى وورع وشجاعة ورجاحة عقل ونبل ومجد.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٤. النشر: البعث. لقد كان مواطنو المرثي حافظي الجميل، يكيلون له الثناء والدعاء ليتقبّله اللّه تعالى في جنان الخلد، فكان ذلك بمثابة بعث جديد له، فيبقى ذكره خالداً في الحياة الدنيا بفضل حسناته وجليل أعماله.

(٢) إنها حالة مشابهة لما فعله سيدنا عيسى عليه السلام من إحياء عازر وكذلك فقد أحيا هذا الميت عمله في الدنيا، فكان الذكر الحسن.

(٣) غاضت: غارت. خبت: خمدت. السعير: اللهب. بموت المرثي تبدّلت أحوال الناس، فقد انقطع المدد وكان كريماً يُنفق بغير حساب فيعم عطاؤه أحباءه ومواطنيه، فكان ذلك ضربة موجعة لهؤلاء كما كان موته لراحة أعدائه. فقد كان يكيد لهم ويقتل فيهم.

(٤) الحشد في بُكاء وحالما أُنزل في مستودعه حتى تلقته الحور العين بالترحاب تكرمة له من ربّه، لذا فمن الواجب ألّا يبكيه الباكون.

(٥) و (٦) يصبّر الشاعر آل الميّت أن يلتزموا بالصبر ويلوذوا به، فمن تكريم العظيم أن =